

اللَّهِ مَا وَعَدَوْهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١﴾ فجعل العزم عهداً وجعل الخلف فيه كذباً والوفاء به صدقاً *

(الخامسة) الصديق في الاعمال وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به فمن وقف على هيئة الخشوع في صلاته لا يراى غيره ولكنه في الباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته فهو كاذب بلسان الحال في عمله غير صادق فيه فالصدق فيه هو استواء السريرة والعلانية بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيراً من ظاهره *

إذا السر والاعلان في المؤمن استوى فقد عز في الدارين واستوجب الثنا فان خالف الاعلان سرّاً فماله على سعيه فضل سوي الكد والعناء ثم درجات الصديق لانهاية لها وقد يكون للعبد صدق في بعض الامور دون بعض فان كان صادقاً في الجميع فهو الصديق حقاً *

كتاب المحاسبة والمراقبة

﴿ بيان لزوم المحاسبة ﴾

قال الله تعالى ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكُنْى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فِى قُرْآنِ الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ وقال تعالى ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ

بِاعْمَلُوا أَحْصَاءُ اللَّهِ وَأَسْوَهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١﴾ وقال تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ
يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ
يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٢﴾ وقال تعالى ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٣﴾ وقال تعالى ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ
مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيَحْذَرُكَ
اللَّهُ نَفْسَهُ ﴿٤﴾ وقال تعالى ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَآحْذَرُوهُ ﴿٥﴾ *
استدل بذلك أرباب البصائر أن الله تعالى لهم بالمرصاد . وانهم سيدناقشون
في الحساب . ويطالبون بمثاقيل الدر من الخطرات واللحظات . فتحققوا انهم
لا ينجيهم من هذه الاخطار الا لزوم المحاسبة . وصدق المراقبة . ومطالبة
النفس في الانفاس والحركات . ومحاسبتها في الخطرات واللحظات . فمن
حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف في القيامة حسابه . وحضر عند السؤال
جوابه . وحسن منقلبه وما به . ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته . وطالت
في عرصات القيامة وقفاته . وقادته الى الخزي والمقت سيئاته . فحتم على كل ذي
حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها
وسكناتها . وخطراتها وخطواتها . فان كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة
لا عوض لها يمكن أن يشتري بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد
فانقضاء هذه الانفاس ضائعة أو مصروفة الى ما يجلب الهلاك خسران عظيم
هائل لا تسمح به نفس عاقل *

﴿ بيان مشارطة النفس ﴾

إذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح ينبغي أن يفرغ قلبه لمشارطة النفس فيقول لها مالي بضاعة إلا العمر ومهما فني فقد فني رأس المال ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح وهذا اليوم الجديد قد أمهاني الله فيه وأنسا في أجلى وأنعم عليّ به . ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني الى الدنيا يوماً واحدا حتى أعمل فيه صالحا فأحسبي انك قد توفيت ثم قد رددت فإياك ثم إياك أن تضهي هذا اليوم فان كل نفس من الانفاس جوهره لاقيمة لها فلا تميل الى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وان دخلت الجنة فألم الغبن وحسرتة لا يطاق . وقد قال بعضهم هب ان المسىء قد عفى عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين . أشار به الى الغبن والحسرة وقال الله تعالى ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾ فهذه وصيته لنفسه في أوقاته ثم ليستأنف لها وصية في أعضائه السبعة وهي العين والاذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل فيوصيها بحفظها عن معاصيها *

(أما العين) فيحفظها عن النظر الى وجه من ليس له بمحرم أو الى عورة مسلم أو النظر الى مسلم بعين الاحتقار ثم اذا صرفها عن هذا لم يقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها وهو ما خلقت له من النظر الى عجائب صنع الله بعين الاعتبار والنظر الى أعمال الخير الاقتران والنظر في كتاب الله وسنة رسوله ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة *

وهكذا ينبغي أن يفصل الأمر عليها في عضو عضو لاسيما اللسان والبطن
(أما اللسان) فلانه منطلق بالطبع ولا مؤنة عليه في الحركة . وجنابته
عظيمة بالغية . والكذب . والنخمة . وتزكية النفس . ومذمة الخلق والاطعمة
والظمن . والدعاء على الأعداء . والممارة في الكلام . وغير ذلك مما ذكرناه
في كتاب آفات اللسان فهو بصدد ذلك كله مع انه خلق للذكر .
والتذكير . وتكرار العلم . والتعليم . وارشاد عباد الله الى طريق الله . واصلاح
ذات البين . وسائر خيراتة (واما البطن) فيكلفه ترك الشره . وتقليل
الاكل من الحلال . واجتناب الشهوات . ويمنعه من الشهوات وهكذا
يشترط عليها في جميع الاعضاء واستقصاء ذلك يطول . ولا تخفي معاصي
الاعضاء وطاعتها ثم يستأنف وصيتها في وظائف الطاعات التي تكرر عليه في
اليوم والليلة وكيفية الاستعداد لها بأسبابها وكذا فيمن يشتغل بشيء من
أعمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس وقلم يخاول يوم عن مهم جديد
وواقعة جديدة يحتاج الى أن يقتضي حق الله فيها فعليه أن يشترط على نفسه
الاستقامة فيها والالتقياد للحق في مجاريها ويحذرهما مغبة الاهمال ويعظها كما
يوعظ العبد الآبق المتمرد فان النفس بالطبع متمردة عن الطاعات مستعصية
عن العبودية ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها ﴿ وَذَكَرْ فَإِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ
تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ *

﴿ فضيلة المراقبة ﴾

روى ان جبريل عليه السلام سأل النبي صلوات الله عليه عن الاحسان

فقال ﴿ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ ﴾ وقد قال تعالى (أَمَّنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ) وقال تعالى (أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى) وقال تعالى (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) وقال تعالى (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ) وسئل بعضهم عن قوله تعالى (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ) فقال معناه ذلك لمن راقب ربه عن وجل وحاسب نفسه وتزود لمعاده . وقال رجل للجنيد بم استمين على غضّ البصر فقال بطلت أن نظر الناظر اليك أسبق من نظرك الى المنظور اليه *

﴿ حقيقة المراقبة ﴾

المراقبة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه ويُهَيَّئُ بِهَا حَالَةَ الْقَلْبِ يَثْمُرُهَا نَوْعٌ مِنَ الْمَعْرِفَةِ وَتَثْمُرُ تِلْكَ الْحَالَةَ أَعْمَالًا فِي الْجَوَارِحِ وَفِي الْقَلْبِ أَمَّا الْحَالَةُ فَهِيَ مِرَاعَاةُ الْقَلْبِ لِلرَّقِيبِ وَمِلَاخِظَتُهُ أَيَاهُ وَأَمَّا الْمَعْرِفَةُ فَهِيَ الْعِلْمُ بِأَنَّ اللَّهَ مُطَّلِعٌ عَلَى الضَّمَائِرِ عَالِمٌ بِالسَّرَائِرِ رَقِيبٌ عَلَى أَعْمَالِ الْعِبَادِ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَإِنْ سَرَّ الْقَلْبُ فِي حَقِّهِ مَكْشُوفٌ كَمَا أَنَّ ظَاهِرَ الْبَشَرَةِ لِلخَلْقِ مَكْشُوفٌ ثُمَّ لِلْمَرَاقِبِ فِي أَعْمَالِهِ نَظْرَانُ نَظْرٍ قَبْلَ الْعَمَلِ وَنَظْرٍ فِي الْعَمَلِ . أَمَّا قَبْلَ الْعَمَلِ فَلِيَنْظُرَانَ هَمَّهُ وَحَرَكَتَهُ أَهَى لِلَّهِ خَاصَّةً أَوْ لَهْوَى النَّفْسِ وَمَتَابَعَةً الشَّيْطَانِ فَيَتَوَقَّفُ فِيهِ وَيَتَثَبَّتُ حَتَّى يَنْكَشِفَ لَهُ ذَلِكَ بِنُورِ الْحَقِّ فَإِنْ كَانَ لِلَّهِ تَعَالَى أَمْضَاءٌ وَإِنْ كَانَ لغيرِ اللَّهِ اسْتِحْيَاءٌ مِنَ اللَّهِ وَإِنْ كَفَّ عَنْهُ ثُمَّ لَامَ نَفْسَهُ عَلَى رَغْبَتِهِ فِيهِ وَهَمَّهُ بِهِ وَمِيلَهُ إِلَيْهِ وَعَرَفَهَا سُوءَ فِعْلِهَا وَإِنَّمَا عُدْوَةٌ نَفْسِهَا وَأَمَّا

النظر الثاني للمراقبة عند الشروع في العمل فذلك بتفقد كنية العمل ليقضى حق الله فيه ويحسن النية في اتمامه ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه *
وهذا ملازم له في جميع أحواله . لانه لا يخلو اما أن يكون في طاعة أو في معصية أو في مباح . فمراقبته في الطاعات بالاخلاص والاكمال ومراعاة الادب وحراستها عن الآفات . وان كان في معصية فمراقبته بالتوبة والندم والاقلاع والحياء والاشتغال بالتكفير . وان كان في مباح فمراقبته بمراعاة الادب ثم بشهود المنعم في النعمة وبالشكر عليها ولا يخلو العبد في جملة أحواله عن بلية لا بد له من الصبر عليها ونعمة لا بد له من الشكر عليها وكل ذلك من المراقبة بل لا ينفك العبد في كل حال من فرض الله تعالى عليه . أما فعل يلزمه مباشرته . أو محذور يلزمه تركه . أو ندب حث عليه ليسارع به الي مغفرة الله تعالى ويسابق به عباد الله . أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته ولكل واحد من ذلك حدود لا بد من مراعاتها بدوام المراقبة (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) ومن كان فارغا من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغي أن يلتمس أفضل الاعمال ليشغل بها . فان من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مغبون . والارباح تنال بمزايا الفضائل *

﴿ بيان محاسبة النفس بعد العمل ﴾

قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَانظُرُوا نَفْسَ مَا قَدَّمْتُمْ لِغَدٍ ﴾
وهذه اشارة الى المحاسبة على ماضى من الأعمال . وقال تعالى ﴿ وَتَوْبُوا إِلَى

اللهُ جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴿ والتوبة انظر في الفعل بعد الفراغ
 منه بالندم عليه وقال تعالى (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان
 تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ إني لأستغفر
 الله تعالى وأتوب إليه في اليوم مائة مرة ﴾ وقال عمر رضي الله عنه :
 حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا . وقال مالك بن دينار
 رحم الله عبدا قال لنفسه ألسنت صاحبة كذا ألسنت صاحبة كذا ثم ذمها
 ثم خطمها ثم أزمها كتاب الله تعالى فكان له قائداً : إذا علمت هذا فينبغي
 أن يكون المرء في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع
 حركاتها وسكناتها كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو
 شهر أو يوم حرصاً منهم على الدنيا . وكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق
 به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد . ماهذه المساهلة إلا عن الغفلة وقلة
 التوفيق ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال وفي الربح
 والخسران ليتبين له الزيادة من النقصان فإن كان من فضل حاصل استوفاه
 وشكره وإن كان من خسران طالبه بضمانه وكفنه تداركه في المستقبل .
 فكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض وربح النوافل والفضائل
 وخسرانه المعاصي وموسم هذه التجارة جملة النهار ومعاملة نفسه الأمانة بالسوء
 فليحاسبها على الفرائض أولاً فإن أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه
 ورغبها في مثاليها وإن فوتها من أصلها طالبها بالقضاء . وإن أداها ناقصة كلفها
 الجبران بالنوافل . وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها ومعاقبتها ليستوفي منها

ما يتدارك به ما فرط كما يصنع التاجر بشريكه . وليتكفل بنفسه من الحساب
ما يتولاه غيره في صعيد القيامة *

* توبيخ النفس ومعاتبتها *

اعلم أن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك وقد خلقت أمانة
بالسوء ميالة إلى الشر فرارة من الخير وأمرت بتزكيتها وتقويمها وقودها
بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها
فإن أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك وإن لازمتها بالتوبيخ
والمعاقبة والعزل والملامة رجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن
تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضية فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها
ومعاتبتها قال تعالى ﴿ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وسبيلك أن تقبل
عليها فتقرر عندها جهالها وغباوتها وأنها أبدا تتميز بفطنتها وهدايتها ويشهد
أنفها واستنكافها إذا نسبت إلى الحق فنقول لها يا نفس ما أعظم جهلك
تدعين الحكمة والذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقا . أما تعرفين
ما بين يديك من الجنة والنار وإنك صائرة إلى أحدهما على القرب فما لك
تشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم . أما تعلمين أن كل ما هو
آت قريب وأن البعيد ما ليس بآت أما تدبرين قوله تعالى (اقْتَرَبَ
إِلَى النَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّث
إِلَّا اسْتَسْمَوْهُ وَهُمْ يَلْمِزُونَ لِأَهْمِيَّةِ قُلُوبِهِمْ) ويحك يا نفس إن كانت جرائتك
على مصيبة الله لأعتقدك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك . وإن كان مع

عليك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حياءك *
ويحك يا نفس لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من اخوانك بما
تكرهينه كيف كان غضبك عليه ووقتك له فبأي جسارة تمرّضين لمقت
الله وغضبه وشديد عقابه أفتظنين أنك تطيقين عذابه هيئات هيئات جرّبي
نفسك ان أهلك البطر عن أليم عذابه فاحتبسي ساعة في الشمس أو في بيت
الحمام أو قربى أصبمك من النار ليتبين لك قدر طاقتك . أم تفترين بكرم الله
وفضله فما لك لا تهولين على كرم الله تعالى في مهمات دنياك فاذا أرهقتك
حاجة الى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضي إلا بالدينار والدرهم فما لك
تنزعين الروح في طلبها وتخصيلها من وجوه الخيل فلم لا تهولين على كرم الله
تعالى حتى يثر بك على كنز أو يسخر عبدا من عبيده فيحمل اليك حاجتك
من غير سعي منك ولا طالب أفتحسبين أن الله كريم في الآخرة دون
الدنيا وقد عرفت أن سنة الله لا تبدل لها وأن رب الآخرة والدنيا واحد
وأن ليس للانسان إلا ما سعى . يانفس أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته
فتجمعين له القوت والكسوة والخطب وجميع الأسباب ولا تتكلين في
ذلك على فضل الله وكرمه حتى يدفع عنك البرد من غير حبة ولبدٍ وخطب
وغير ذلك فإنه قادر على ذلك أفتظنين أن العبد ينجو بغير سعي هيئات
كما لا يندفع برد الشتاء إلا بالجبة والنار ووسائل الأسباب فلا يندفع حر
النار وبردتها إلا بخصن التوحيد وخذق الطاعات وانما كرم الله تعالى في
أن عرفك طريق التحصن ويسر لك أسبابه لاني أن يدفع عنك المذاب

دون حصنه انظري يانفس بأى بدن تقفين بين يدي الله وبأى لسان
تجيبين وأعدى للسؤال جوابا وللجواب جوابا واعمل بقية عمرك في أيام
قصار لأيام طوال وفي دار زوال لدار مقامة وفي دار حزن وانصب لدار
نعيم وخاود واعلم أنه ليس للدين عوض ولا للإيمان بدل ولا للجسد
خاف ومن كانت مطيته الليل والنهار فانه يسار به وان لم يسر فاتمطى
يانفس بهذه الموعظة واقبلى هذه النصيحة فان من أعرض عن الموعظة فقد
رضى بالنار فهذه طريق القوم في معاتبة نفوسهم ومقصودهم منها التذية
والاسترعاء ومن أهمل المعاتبة لم يكن لنفسه حراعا ويوشك أن لا يكون
الله عنه راضيا *

كتاب التفكير

﴿ فضيلة التفكير ﴾

اعلم انه قد أمر الله تعالى بالتفكير والتدبر في كتابه العزيز في مواضع
لا تحصى وأثنى على المتفكرين فقال تعالى (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا
وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا
خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا) وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما ان قوماً تفكروا في
الله عز وجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم (تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللَّهِ وَلَا تَتَفَكَّرُوا
فِي اللَّهِ) وروى في السنة (تَفَكَّرْ سَاعَةً خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ) وقال حاتم
(من العبرة يزيد العلم ومن الذكركر يزيد الحب ومن التفكير يزيد الخوف)